الفصل الثالث عشر
السيدة مريم تحت جزع النخلة

السيدة مريم عليها السلام أم النبي عيسى المسيح هي أفضل نساء العالمين وهي امرأة جليلة عفيفة طاهرة، صبرت على أذى قومها، وكانت تقية عارفة بالله تعالى ،وقد أكرمها الله عز وجل بكرامات ظاهرة، واصطفاها من بين جميع النساء، لتكون أمًّا لنبيه عيسى المسيح عليه السلام دون أن يكون لها زوج أو يمسسها بشر.

والسيدة مريم عليها السلام هي أفضل نساء العالمين بنص القرءان الكريم فقد قال الله عز وجل في محكم تنزيله " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)آل عمران فقوله تعالى: اصطفاك؛ أي اختارك واجتباك وفضلك.

وبنص الحديث النبوي الشريف فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:" وخير النساء مريم ابنت عمران ثم فاطمة بنت محمد ثم خديجة بنت خويلد ثم آسيا بنت مزاحم"

وكانت أمها امرأة عمران واسمها حنة وهي، لا تلد فرأت ذات يوم طيرًا يزق فرخه، فتحركت فيها عاطفة الأمومة، وطلبت من الله عز وجل أن يرزقها ولدًا صالحًا، ونذرت أن تجعله خادمًا في بيت المقدس، لأنها كانت

تظن أنه سيكون ذكرًا، ولأن الذكر عادة يصلح للاستمرار على خدمة بيت المقدس موضع العبادة، ولا يلحقه عيب بذلك.

لكن الله تبارك وتعالى شاء لحنة امرأة عمران أن تحمل بأنثى، تكون سيدة نساء العالمين، وأمًّا لنبي من أولي العزم من الرسل وهو عيسى المسيح السلام.

ولما ولدت امرأة عمران وضعت أنثى و أسمتها مريم، وتولاها الله سبحانه وتعالى برحمته وعنايته وشاء الله عز وجل لنبيه زكريا عليه السلام، وكان زوج أخت مريم، أن يتكفلها دون غيره من الرجال ؛ فكان زكريا عليه السلام يعلمها تعاليم دين الإسلام والأخلاق الحسنة وينشئها على الأخلاق الفاضلة، فنشأت مريم عليها السلام صالحة عفيفة، طاهرة، عارفة بالله عز وجل، وتقية وولية تداوم على طاعة ربها عز وجل أناء الليل وأطراف النهار.فانبت الله مريم نباتا حسنا فهي ستكون أم ذاك النبي الذي سيرسله الله بدينه ، فأكرمها الله سبحانه

بالكرامات الظاهرة التي كانت آيات عجيبة دالة على عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى، فقد كان نبي الله زكريا عليه السلام يرى عندها في المحراب، وبعد أن يغلق عليها أبواب المسجد، كان يرى فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، كرامة لها من الله عز وجل، يقول الله تعالى:" فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)آل عمران.

و لما جاء أمين الوحي جبريل عليه السلام مريم عليها السلام حاملاً روح نبي الله عيسى المسيح المشرف المكرم، فنفخ بروح عيس فى مريم كما ذكر بكتاب الله الكريم " وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)الأنبياء

،فحملت من وقتها بقدرة الله ومشيئته، بعيسى عليه السلام ونفذت مشيئة الله تعالى في مريم عليها السلام، كما شاء ربنا تبارك وتعالى وقدر في الأزل. واستمر حمل مريم عليها السلام بعيسى المسيح كحمل بقية النساء، بعدد من الأشهر، ثم ذهبت مريم عليها السلام بحملها إلى مكان بعيد عن الناس؛ خوفًا من الناس وقومها ، وهي تتساءل كيف سيتقبل الناس حالها ومن سيصدقها ، فصبرت على مصيبتها صبرًا جميلاً، ولما جاءها المخاض وهو وجع الولادة

، فألجأها هذا الألم إلى ساق نخلة يابسة، فأسندت ظهرها إلى جذع تلك النخلة وقد اشتد همها وكربها وقالت :كما جاء في وصف القران الكريم في موقفها هذا " فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)مريم

قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا "كان الموقف عظيما على مريم وتمنت لو كانت روحها زهقت قبل ان تكون فى هذا الحال ، ولكن تدبير الله لمريم عظيم ، وهنا جاءها الفرج

واليسر بعد العسر ،لينادي من تحتها مناديا ليخبرها " أَلَّا تَحْزَنِي ".

فطمأنها جبريل عليه السلام وبشرها، بأن الله عزوجل قد أجرى تحتها نهرًا صغيرًا عذبًا فراتًا، وأنه يطلب منها أن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب الجني، وأن تأكل وتشرب مما رزقها الله عز وجل، وأن تقر عينها وتفرح وتقر عيناها بعيسى ،حيث جاء الذي خلق الله له المعجزات وأنطقه في المهد ، وأخبرها جبريل بأمر الله ، وأن تقول لمن رءاها وسألها عن ولدها إنها نذرت للرحمن صوما ولن تكلم اليوم انسيا أي أنه لن تكلم أحدًا؟كما ورد فى الذكر الحكيم بوصف رائع المنطق العقلي والإيمان القلبي" فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)مريم

وذهبت به إلى قومها، ، فلما رأتهم من بعيد، حملت ولدها عيسى عليه السلام، وضمته بين ذراعيها برأفة وحنان، ثم أتتهم به، وهي تحمله، وقلبها كله ثقة وتوكل على الله عز وجل.

وقلبها مطمئن بنصر الله لها ،ونجاتها من افتراء قومها عليها ، ولم تنطق مريم حرف واحد كما أمرها الله حتى عندما اتهموها انها اتت شيئا فريا و أشارت إليه أن يكلموه فتعجبوا من

ذلك وقالوا لها مندهشين" كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا " فأنطقه الله تبارك وتعالى، الذي أنطق كل شيء، أنطقه الله تعالى فقال لهم بلسان فصيح:" قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ " أنطقه الله عز وجل ليخفف عن أمه مريم عليها السلام الوطأة.ويبرائها من افترائهم عليها انها رحمة الله بعباده المخلصين ووعدها الحق بنصرتهم فى بلاءهم العظيم حيث حملت مريم المصائب

من قومها بنفس راضية مرضية، غير معترضة على أمر ربها العظيم ، حتى نالت هذه المنزلة عند خالقها فكانت سيدة نساء العالمين، لذلك ذكرها الله تعالى بكتابه الكريم ، وأثنى عليها الثناء الحسن.وقال تعالى " " وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)آل عمران